

## المؤدب والتاريخ

## ٢- الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه

الاستاذ محمد سعيد العريان

## الرافعي المؤدب

مضى الرافعي في قرص الشعر، معنياً به، متصرفاً في فنونه، ذاهباً فيه مذاهبه، إلى جانب عنايته بالتأليف والكتابة، وانكباه على العلم والتحصيل، فوضع في سنة ١٩١١ كتابه (تاريخ آداب العرب)، وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بك أسبوعاً يحطّب عنه في مجالس العاصمة<sup>(١)</sup> وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان - وهو أشهر كتاب العربية في ذلك الوقت - مقالة في صدر (المؤيد) جاء فيها: «لو كان هذا الكتاب في بيت حرام إخراجُه للناس منه، لكان جديراً بأن يُحجّ إليه؛ ولو عُكف على غير كتاب الله في نواحي الأسفار، لكان جديراً بأن يُمكّف عليه...»

وقال عنه المقتطف: «إنه كتاب "سنة...» وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب ومن يقرأ كتاب الرافعي (تاريخ آداب العرب) يعرفه علماً عميق البحث، مُرتب الفكر، واسع المعرفة؛ إلى جانب معرفته به شاعراً عربياً الديقاجة، مُشريق المعنى، مشبوب العاطفة؛ على أنه كان يومئذ لم يجاوز الثلاثين...

ثم أُلّف الرافعي (كتاب الساكن) الذي يقول عنه فقيده العربية السالمة أحمد زكي باشا: «لقد جعلت لنا شكيبيرك للانبجاس شكيبير، وجوته كاللؤلؤان جوته، وهو جوك للفرنسيين هوجو...»

وتأق نجم الرافعي الشاعر العالم الأديب، وبرز اسمه بين

(١) حدثني الأستاذ الراضى بهذه العبارة، كما حكاه له الأستاذ أحمد لطفي السيد بك

عشرات الأسماء من أدباء عصره برأفاً تلتهم أضواؤه وترى أشممتها إلى بعيد؛ على أن هذه المنزلة الكريمة التي نالها الراضى بين الكتاب إلى جانب منزلته في الشعر - لم تكن عربية؛ فقد حدثني أديب فاضل كانت له صلة بالسلامة الشيخ إبراهيم اليازجي: أن الراضى لما طبع الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٣ وأهدى منه نسخة إلى الأستاذ اليازجي - أبطأ في الكتابة عن الديوان؛ فسأله هذا الأديب الفاضل في ذلك فقال: لقد قرأت مقدمة الديوان فأكبرت أن يكون كاتبها من عصرنا؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانها من كتب العربية، مما أخادع نفسي في قدرة هذا الشيخ على كتابة مثلها. فقال له: إنه ليس بشيخ، بل هو فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين...

وليس عجيباً أن يكون هذا كلام اليازجي، فقد برهن الراضى من بعد ألف برهان على ذلك. وإنما كتب هذه المقدمة وعُني بها حتى جاءت ما جاءت، ليعارض بها مقدمة حافظ لديوانه الذي نشره قبل ذلك بقليل؛ وكان لمقدمة حافظ هذه حديث طويل، حتى نسبها بعضهم يومئذ إلى المولىحى؛ ولكن مقدمة ديوان الراضى جاءت بعدها تقطع قول كل خطيب؛ واحتفل بها (المؤيد) أيتها احتفال فنشرها في صدره، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربي

## بين الجبرير والقصرم:

ثم بدأ الراضى يميل عن الشعر رويداً رويداً حتى هجره منذ عامين، لم ينظم فيهما غير قصيدتين أنتجت نشرتا له في مجلة المقتطف. وإنما لخسارة كبيرة أن ينصرف الراضى عن الشعر ويترك ميدانه خالياً... على أنه لم يهجر غير الشعر المنظوم، وهذه كتاباته المنشورة ضرب من الشعر أفسح مدى وأبعد غاية، وإنه لينسى بها أدباً جديداً في العربية على رغم ما يتسمه بالتقليد والحفاظة على القديم؛ بل معانيه كما قال الأستاذ الدكتور منصور فهمي في تقريره رسائل الأحران: «إنها من آخر طراز يأتي من أوروبا...» على أن الراضى إلى ذلك ليس له حظ من لغة أجنبية، ومعرفته الفرنسية لا تجدى عليه اليوم أكثر مما كانت تجدى عليه يوم كان يتعلمها بالدراسة وهو غلام!

وللجديد والقديم حديث طويل في تاريخ الراضى؛ فهو قد

النقد، مما عالج من مختلف فنون الأدب، ووقف على أسرار العربية؛ من ذلك لما كتب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي مقالته عن الشعراء ونشرها في مجلة (سركيس) سنة ١٩٠٣، كتب المرحوم حافظ إبراهيم إلى الراجحي يقول: «... وقد وكلتُ أمر تأديبه إليك...»

وقد تعجب أشدَّ العجب أن ترى الراجحي ينسى حين يجرد قلمه للنقد كل اعتبار مما تقوم به الصلوات بين الناس؛ ولكنه هو يمتدح من ذلك بقوله: «... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطيرة، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه؛ ونحن نردّ على هذا وعلى هذا برّدٍ سواء، لا جهلنا من نجهله بلطف منه، ولا معرفتنا من نعرفه بتبالح فيه... فإن كان في أسلوبنا من الشدة، أو العنف، أو القول المؤلم، أو التهمك، فما ذلك أردنا، ولكننا كالذي يصف الرجل الضالّ ليمنع المهتدي أن يضلّ، فما به زَجْرُ الأول، بل عظة الثاني...»

وقد خسر الراجحي كثيراً بالأسلاك على مذهبه ذلك، ووضع نفسه بحيث تنوشه من كل جانب سهامُ مسدّدة، وألّج عليه كثيراً من الخصوم؛ ولكنك لن تسمع منه أبداً كلمة الندم، وتراه على ترْبُص دائم لكل «ذى دخلة للدين والعربية...» وهو ضربٌ من التضحية والشجاعة يدعو إلى الإعجاب

وكما ترى هذا الموقف للراجحي من دعاة الجديد في الأدب، ترى له موقفاً قريباً منه من دعاة الجديد في الأخلاق والاجتماع؛ فله آراء في الاختلاط، والحجاب، والتعليم، والحريّة، والحب والزواج؛ تراها منبثة في عديد الكتب والمقالات؛ ولكن قليلاً من القراء من يستطيع أن يفهمها بروح مجردة من هوى، ليمرف أيّ مذهب في الاجتماع يدعو إليه الراجحي؛ وله في هذه المقالات روح رقيقة، وشعر ساحر، وحجة قوية؛ وهو فيها من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة؛ ولست واجداً أجداً يردّ عليه رأيه في ذلك على قلة من تجد من أنصاره؛ وقد جلستُ مرة إلى أديب كبير وصربٍ فاضل، تداول الرأي في أدب الراجحي ومذهبه الاجتماعي، فقال لي: «إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب، ولكنك

وقف نفسه على الدفاع عن الدين والحفاظ على لغة القرآن. ذلك مذهب درج عليه وأعانت عليه نشأته وتربيته؛ وهل يأخذ أحد عليه هذا المذهب أو ينكره؟... فهو إنما «يحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منها شيء قائم كالأساس والبناء، لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً...» وإنه بسبيل ذلك ليسأل: ما الجديد وما القديم؟

لو أنهم يعنون بالجديد الابتداع والطرافة بمقدار ما يتطور الفكر، أو الانشاء والابتكار على مقدار ما ينفع الزمن في إحساسات أهله، أو التنويع والخلس على قياس ما يزيد في الماني ويستجد من انفعالات النفس - لو أنهم يعنون بالجديد شيئاً من ذلك، أو كل شيء من ذلك، لوجدوا الراجحي مجدداً مع المجددين؛ بل لما كان لشيء من هذا أن يُسمى جديداً، لأنه حكم الزمن وسنة التطور من قديم... أما أن يكون التجديد هو ابتداع لغة ليست من اللغة، وإنشاء دين من شهورات النفس لا من وحى السماء، والتوير على التاريخ القديم باختراع تاريخ من الأحلام - أما أن يكون ذلك كذلك فما هو التجديد، ولكنه التبيد الذي يوشك أن يقبمه الفناء...!

### في النثر:

هذا هو الراجحي في موقفه من الجديد والقديم؛ وما نحسب أن تنتهي منه حتى نمرض لأسلوب الراجحي في النقد؛ فما نعرفه فأقدراً عتيقاً إلا حين يتناول الجديد والقديم؛ وإذا نحن تدبرنا ما أسلفت من تلخيص رأيه في الجديد والقديم، ومن مقدار حماسته في الدود عن الدين والعربية - عرفنا لماذا يؤثر الراجحي ذلك الأسلوب المتيف في مهاجمة خصومه والطنن عليهم، إذ هو لا يعتبر حينئذٍ إلا شيئاً واحداً، هو الدفاع عن الدين وراث السلف، مؤمناً بأنك «لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة...» وأنت لا ترى الراجحي صرة يأخذ في أسباب النقد ليدفع كيداً براد بالامنة والدين، إلا كما ترى البدويّ الثائر لمريضه، يطرح كل اعتبار من دون هذا الشرف المثلوم؛ فمن ثمّ يكون في كلامه معنى الدم...!

على أن الراجحي إلى شدته وعنفوانه، ناقدٌ بصير بأساليب

لن نجد أحداً - أيضاً - يستطيع أن يصول الرافى في ميدانه  
بمثل حجته وقوة إقناعه . . . »

### الرافى والمرأة :

وإذ تكلمتُ عن مذهب الرافى في الاجتماع ، فاني أفت  
قليلاً لأحدث عن الرافى والمرأة

ومجيبٌ أن يكون الرافى صاحب « إيجاز القرآن ، وأسرار  
الاعجاز ، والبلاغة النبوية ، والانسانية العليا ، وسمو الفقر ؛  
والحدث ، المُسَرِّ ، التصوُّف ، الذى يصف عن عصر النبوة ،  
ومجالس الأئمة ، وكأنه يعيش في جوهم وينقل عن حديثهم ؛  
والذى تتصل روحه فيما يكتب من وراء القرون بروح الغزالي ،  
والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم وغيرهم من  
أئمة السلف - مجيب أن يكون هذا الرافى هو صاحب « رسائل  
الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، وسمو الحب ،  
والبامتان ، وسحر المرأة ، والطائشة ، وغيرها وغيرها ؛ فيصف  
عن المرأة والحب ، ويتحدث في ذلك حديث الرجل الذى عرف  
وذاق وجرب ، ولبس المرأة ولبسته ، واستبدل قلباً بقلب ،  
وتقلب بين مجالس ومجالس ، وسمع ( لا ) بمعنى ( نعم ) ، و ( اليك )  
عنى ( في موضع ) ( اتبعنى يا حبيبي ) ؛ والذى يترجم معنى النظرة  
والابتنامة وما بعدها . . . !

وإنك لتراه أحياناً يمزج بين حديث الحب وحديث الدين ،  
ويصل بين وحى السماء ووحى الميون الدُّعُج . . . فتسأل :  
أى رجل هو ؟

ولقد خالطته زماناً ، فاني لأعرفه عرفانى لنفسى ، فما وجدته  
في حاليه إلا الرجل العفُّ الكريم ، ولكن له عالمٌ من وراء  
هذا العالم ، يصل اليه في سبحات فكرية لطيفة ، ليستوحيه من  
ممانى المرأة مالا سبيل إلى معرفته في دنيا الناس . ولو أنك أردت  
أن تسأله مرة : أى رجل أنت ؟ لما جاءك الجواب إلا أنه  
رجلٌ وَحَسْبُ . . . !

وتسأل نفسك : هل عرف الرافى الحب نغفً يحتاجه  
إلى تلك العوالم غير المنظورة ينقل عنها فلسفة الجمال والمرأة  
والحب . . . ؟ فاستمع اليه بقر : « إن النابغة في الأدب لا يتم  
تعامه إلا إذا أحب وعشق . . . ! » ثم ارجع إلى كتبه الثلاثة :

رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ لتعرف  
« أنها كانت عواطف تارت وقتاً ما ، ليحدث منها تاريخ ؛  
وسكنتُ بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة . . . »

ولكن ، من تكون تلك الفتاة التى تيسمها وتيسمته  
زماناً ، « هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته  
وفلسفته . . . ؟ »

ذلك مرء هو ، أو سرها هى . . . !

### وطيفته :

وللرافى رأى في معنى ( الوطن الاسلامى ) ، والوطنية  
الاسلامية ، تلححه في كثير مما يكتب ، قوامه « أن يظهر  
المسلم الأول بأخلاقه وفضائله في كل بقعة من الدنيا مكان  
انسان هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فان كل أرض اسلامية  
يكاد لا يظهر فيها إلا انسانها التاريخى بمجهله وخرافاته وماورث  
من القدم ، فهنا المسلم الفرعونى ، وفي ناحية المسلم الوثنى ،  
وفي بلاد المسلم المجرسى ، وفي جهة المسلم المظل . . . وما يريد  
الاسلام إلا نفس المسلم الانسانى . . . »

فلا يمنع أن يكون إلى جانب احساسه بمعنى ( الصرية )  
احساس آخر بمعنى ( الاسلامية ) على أنها الوطن الأكبر ، كما  
لا يمنع الطنطاوى أن يكون إلى جانب حبه ( طنطا ) حب  
أعمق يشمل ( مصر ) كلها ؛ فاذا تحدث الرافى عن الشام ، أو  
العراق ، أو بقعة أخرى من الوطن الاسلامى ، فما معنى ذلك  
أنه قد خلع مصريته

والوطن عند الممجى دار توويه ، وحقل يُغفل عليه ، وكلما  
زاد الانسان في معنى الانسانية انبسطت له رقعة الوطن ، فمن  
ثم كان الوطن فيما يرى الانسان السلم هو كل أرض يخفق فيها  
لواء الاسلام ، وما مصر ، والعراق ، والشام ، والمغرب ،  
وغیرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الاسلامى الأكبر ،  
كالأقاليم من الدولة ، والمناطق من الأقليم ، والشوارع من المنطقة ،  
والدور من الشارع ، والفرقتين من الدار ، حين يتدابر الأخوان  
وتدب بينهما الشحنة التى توشك أن تنسيهما أنهما أخوان  
لأب وأم . . . !

محمد سعيد العريانه

( البقية في العدد القادم )